يوم صـــيد

للأديب حسين شوقي

ما كادت تلوح بالأفق خيوط النهار الفضية الأولى ، حتى كنا انتبهنا من نومنا : صديقاي وأنا ، وقد أزمعنا الذهاب لصيد البط في ضواحي الهرم ، وكان كل منا يحمل بندقية ذات عيارين وعدداً كبيراً من الخرطوش ، صعدنا السيارة ونحن أشد بهجة من فصائل اسكندر المقدوني الفتية لدى زحفها على آسيا .

أما المدينة فكانت غارقة في النوم في تلك الساعة المبكرة ساكنة بأحقادها وشهواتها ، ولم يكن أحد مستيقظاً ، اللهم الا محرك سيارتنا .

سارت بنا السيارة في شارع الهرم ، ولما بلغنا المستنقعات الواقعة في الجهة الغربية من طريق الهرم ، غادرناها وركبنا زورقاً طُلي بالظلاء الأسود حتى لا تشعر البط بوجودنا بالمستنقع ، وكان موجوداً بكثرة على سطح الماء .. هل كان البط نائماً وقتئذ ؟ لم يكن لدينا شك في ذلك برغم اعتراض دليلنا — وكان فتى قرويا — وذلك لسكونه سكوناً عجيباً . .

ولكنا كنا مخطئين إذ لم نكد نقترب منه حتى انطلق في الجو . كأنه سهم ناري فأطلقنا عليه البنادق في الهواء ولكن بدون جدوى رغم عدده الكثير . . لقد ظهرنا في عيني دليلنا القروي صيادين غير ماهرين ، فانتزع بندقية أحدنا وأطلق طلقة واحدة أسقطت بطة في الحال !

وا أسفاه على الدروس التي تلقيتها في صباي للصيد في الهواء ! كنت أتمرن وقتئذ على البيض ، يقذفون لي البيض في الهواء فأطلق عليه بندقيتي فاذا أصيب البيض وهو ما كان يقع نادراً — سال فأمطرنا مطراً أصفر !

وبعد محاولات يائسة لصيد البط ، غادرنا المستنقع اذ لم نجد سبيلاً الى البط فهو شديد الفطنة . .

كيف يدرك البط الخطر على مسافات بعيدة ؟ إن شأنه شأن الحمام الزاجل الذي يعرف طريق الوطن على بعد مئات من الأميال . هل تكشف لنا الطبيعة يوماً عن مثل هذه الأسرار ؟

قبل أن نغادر المكان تركنا لدليلنا القروي البطة التي صادها هو ، حتى لا تذكرنا فشلنا على الدوام . .

هل كنا نعود وقتئذ الى المنزل ؟ لم يكن في استطاعتنا أن نفعل ذلك ، إذ لو عدنا لصرنا سخرية الجميع . . صممنا بعد ذلك على البحث عن طير يكون أقل فطنة من البط . .

ها نحن أولاء نسير وسط الغيطان التي كسيت بساطاً أخضر جميلاً من البرسيم . . ثم اعترضتنا ترعة لا جسر عليها للمرور ، وكنا في حيرة من أمرنا حينما أقبل قروي وتطوع أن يحملنا على ظهره عبر الترعة . وقد مررت بهذه الطريقة ، ومر أحد صديقي . وأما الصديق الثالث وكان بديناً ، فقد عُزز هو وحامله في الطين ، وبدلاً من أن يعمل على الخروج من الترعة ، أخذ يضرب القروي المسكين ! . يا له من منظر مضحك أنسانا فشلنا مع البط ! .

ثم أقبل قرويان آخران فقاما بعملية النجدة . . بعد ذلك بلغنا مكاناً مظللاً بالأشجار الكثيفة ، حيث أخذت العصافير تزقزق جذلة مسرورة . . وقد شاهدنا على أحد الغصون يمامتين تتناجيان ، كم كان منظرهما جميلا ، وقد طوق عنقاهما بطوق فاحم جميل ، كما رُصّع منقاراهما بالياقوت . .

ثم حدث ما كنت أخشى وقوعه ، فقد اقترح صديقاي أن نصطادهما ! لم يكن في طاقتي أن أطلق النار على هذين المخلوقين الجميلين ، إنها حقاً لوحشية ! لذلك رفضت ، فقال أحد صديقي ليقنعني : أطلق ولا تكن غبيا ، لقد حللت لك الصيد قوانين السموات والأرض ! فقلت : ليكن ، ولكن قلبي لا يطاوعني !

ولما رآني صديقي مصمماً على الامتناع ، أطلق هو عياراً فأردى احدى اليمامتين ، سقطت وقد كسر جناحها ، كما أن خرطوشة أخرى لا بد أنها اخترقت قلبها ، لأن الدم كان يسيل من منقارها بغزارة .

ورغم وحشيتنا هذه كانت عينا اليمامة ترمقاننا في حنان ، كأنها قد غفرت لنا فعلنا كما غفر عيسى من قبل لمضطهديه اليهود ! يا للأسف ! إننا ما زلنا متوحشين نسر لرؤية الدم ! كم نحن بعيدون عن المثل العليا التي ينشدها أفلاطون !

ومن ذلك اليوم كرهت الصيد ، فكل عام أجدد رخصتي دون أن أجدد رغبتي .

حسين شوقي